

الفصل الثانى

فى ميزان الفتوى

ان الصراع فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة بين العلمانية والاسلام
اصبح صراعا داخليا .. بعد ان وطنه الاستعمار ، وخرج عليه اجيالا
مقتابعة .. اصبح صراعا فى واقع الامر : بين قوى وطبقات من الوطنيين غير
متكافئة ... بين طبقة تحكم ،

.. واخرى لا تملك الا الازعان ،

.. وثالثة تبارك الحكم ونظامه ، ايا كان هذا النظام !

... اما الطبقة التى تحكم فهى طبقة المثقفين والموجهين ، الذين
يتولون اجهزة الحكم ، ويصرفون الامور على اساس من العلمانية .

... اما الطبقة التى لا تملك الا الازعان .. فهى طبقة المتدينين
من الجماهير ، التى تعتقد فى الاسلام كدين ... ولا تملك فهمه وعرضه .

... واما الاخرى الثالثة التى تبارك نظام الحكم واسلوبه ، وتفتش
باسم الاسلام عن مبررات نظام الحكم القائم ، فهى طبقة الذين ينتسبون
الى الدعوة الاسلامية .. ويحترغون بالعمل فى تراث الاسلام . واحترافهم
بتراثه من شأنه أن يحول دون الايمان به .. ايماننا يمكن لوجوده .

وهنا تواجه الملاحظ للمجتمع الاسلامى .. هذه الأسئلة :

هل سيبقى الاسلام ؟

هل يسود مرة اخرى .. فى مجتمع المسلمين المعاصر ؟

هل يتجدد الايمان به ؟

هل يحسن المؤمنون به .. عرض مبادئه ونظامه ؟

وفي استعراض وضع الاسلام .. نجد :

● أن وجوده في المجتمعات الاسلامية المعاصرة .. هو وجود نظري .. يعيش في التفكير ، وفي محيط الراى والقول ... وقلما يتجاوز ذلك الى التطبيق العملى ..

... ووجوده النظرى ، وما يطبق منه فى واقع الحياة ، ربما يحتاج ادعاء تعبيره عن الاسلام الى تريث قليل او كثير . لأن تقطيع الصلات بين عناصر الأمة الاسلامية ومجموعاتها ، ووضع الفواصل والحدود بينها عن طريق الانحطاط والشيخوخة أولا ، ثم عن طريق الاستعمار ثانيا .. عزل كل مجموعة عن الأخرى فترة طويلة من الزمن .. وترك للعادات القديمة ، وثقافة الماضى البعيد ، وتاريخها قبل الاسلام .. أن تتشبث ببعث جديد لها ، دفع بها الى الحياة ثانية ، فاختلطت بها للاسلام فى مجموعة من هذه المجموعات من مبادئ نظرية ، أو ممارسات عملية . وبمضى الوقت كاد يتميز اسلام كل مجموعة عن اسلام الأخرى ... فى الفهم ... والممارسة معا ... فضلا عن التحريف فى التأويل والتفسير ، الذى حرص عليه طريق العلمانية أولا عن طريق المستشرقين ، والذى أدخل عناصر جديدة تزيد فى المفارقة بين المسلمين .. بعضهم فى مواجهة بعض .

ولكى تتضح المفارقات فى أفهام المسلمين المختلفة للاسلام ... وفى تطبيقاتهم غير الموحد لمبادئه وعبادته من جانب ... كما يتضح المجال العملى والنظرى للاسلام سعة وضيقا فى حياة المجتمعات الاسلامية المعاصرة من جانب آخر ... يجب أن يكون هناك بحث خاص يسمح واقع هذه المجتمعات ، ويصنف هذا الواقع كما هو .. كتعبير وترجمة للاسلام المعاصرة فى حياة المسلمين ... ثم ترد به الى الاسلام ، كما هو : فى كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة .

وبذلك يظهر المدى الذى يصور الاسلام المرسل والموحى به فى مواجهة مقدار ما يشغله اليوم فى ايمان المسلمين ، .. وتفكيرهم .. وسلوكهم فى الحياة .. ومعاملة بعضهم لبعض ... وبالتالي تظهر قوته الحقيقية ، أو ضعفه الحقيقى .

وهذا البحث يصح أن يكون نواة .. لعلم الاجتماع الاسلامى .

● كذلك وجود المؤسسات الاسلامية فى مجتمعاتنا القائمة فى كثير من بلدان العالم الاسلامى التى استقلت حديثا .. يكاد لا يحس ، بسبب ضعف القائمين عليها ، او بسبب عدم الرغبة فى معاونتها من المستولين ، او بسبب اضطهادها ممن لهم الامر فى أجهزة الحكم ، سرا او علانية . ويستوى الوضع لهذه المؤسسات بين ان تكون تعليمية ، او اكاىيمية للبحث ، او وسائل للاعلام ، او دورا للطباعة والنشر .

... وليس أهون على الحكومات فى العهود الوطنية ، لعصر ما بعد استقلال المجتمعات الاسلامية المعاصرة ... من مجال الاسلام والشئون الاسلامية . فهو مجال مفتوح .. للخرافة ... وللوهان .. وللأفاقية والدجل .. وللحرقة والاتجار .

وليس أبسر على هذه الحكومات الوطنية .. من الاستخفاف بالاموال العامة للدعوة الاسلامية ، وهى أموال الأوقاف الخيرية او ليس أبسر عليها .. من اهمال المؤسسات الاسلامية القائمة على رعاية جانب عام لمصالح المسلمين .. او الغائها وتحريم مزاولتها أى نشاط اسلامى لها ... مهما طالت المدة بعد ذلك ، ومهما تعاقبت الحكومات المختلفة ..

... ويزيد أمر الاسلام ضعفا ، أو يزيد أمر الاعتداء عليه قوة ... نفوذ الماركسية اللاحادية ، فى صورة أو أخرى ... مكشوفة أو مقنعة .. فى التوجيه الاعلامى ، والتعليمى بوجه خاص ، فى تسربها الى المجتمعات الاسلامية منذ النصف الثانى من قرننا الحاضر ..

ومن عرض ما جاء فى هذا الكتاب يلاحظ : أن اللينينية ، والاستالينية بعدها .. ميزت هذا الاتجاه الماركسى اللاحادى بالحدة ضد الدين ، أى دين وعدم قبول **التعايش السلمى** معه . ومن أجل ذلك : تحرص طليعة هذا الاتجاه على الاستيلاء على وسائل الاعلام أولا ، لتحطيم القيم المقومة لشخصية المجتمع .. وفى مقدمتها : الدين .. ثم اللغة .. ثم التاريخ ..

... ولا يختلف الاتجاه العلمانى اطلاقا ، مع تمثيله للرأسمالية ، عن الاتجاه الماركسى اللينينى ... فى استهداف القضاء على : **الشخصية** التى تكون لمجتمع ما ، بغية التمكن من جره الى دائرة : **التبعية** . وهذا أمر طبيعى للتمهيد ، للسيطرة .

والفارق الوحيد فى استهداف كل من الاتجاهين :

أن الاتجاه العلمانى .. يعمل أخيرا .. لجساب رجال الصناعة والمال .

... وفي مقابل الوجود النظرى وحده للاسلام فى المجتمع —————
الاسلامية المعاصرة ... وفى مقابل ضعف المؤسسات الاسلامية فيها ...
توجد قوة فعلية للاتجاه العلمانى ، ثم توجد فى خطه قوة أخرى للاتجاه
الماركسى اللينينى ... وهو قوة الحكم وأجهزته .

... والذين يتولون الحكم في الدرجة الأولى .. هم من الفريق الأول ، وقد يشاركونهم في قوة أو في ضعف على حسب ظروف المجتمع ...
انصار النزعة الثانية .

وهؤلاء تمكنوا من الأجهزة الحكومية ، ثم من القيادة السياسية ، بفعل المستعمرين أولا ، ثم بالعرف الذي أصبح تقليدا فيما بعد . . .

وكان من الطبيعي أن يبعدوا **الجامدين** من الوطنيين ، وحولوا بينهم وبين الحكم بأية وسيلة . لأنهم أشد نفرة منهم ، أو كما يقال .. لم تتوفر لهم عناصر الصلاحية لمباشرة الحكم .. وهم الذين تخرجوا على التوجيه الوطني الاسلامي !

٢٨٢

ونجحت في تكتيلها ، وفي قوتها واستمرارها . لأنها رفعت المكافحين في سبيل تحرير أوطانهم من مادية الحياة ، واغراء جاهها ومتعها ، ووضعهم في مستوى القيم وحدها .

وأكثر من ضحى فيها من الوطنيين . هم المتدينون من الجماهير .. وكذلك الذين كانت لهم صلات بالاسلام ... عن طريق العمل والدراسة في تراثه ..

وأقل ما ظهر من الوطنيين في مجال الكفاح .. هم الذين تسلموا مقاليد الحكم ، تحت اشراف المستعمر قبل الاستقلال . وتحت وصايتهم بعده .. أقلهم من تخرج في المدارس الدينية التبشيرية .. ثم من تخرجوا في المعاهد العلمانية .

... ثم كان أقلهم حظا في النفع بالاستقلال .. أكثرهم تضحية في سبيله . وكان أكثرهم خيبة في تحقيق الأمانى الوطنية بعده .. هم أوثقهم صلة بأرض الوطن ، وبمقوماته . فليس أعز على المضحى في سبيل وطنه : من أن يرى .. لغته ... ودينه ... وتقاليده وقد استمدت وضعها في القيمة والتوجيه ، لأنه لم يستهدف مالا ، ولا جاها .. إنما استهدف قيمة واعتبارا .. وقيمه واعتباره .. لا فيما يملك من مال .. وإنما فيما له من تاريخ ... ورسالة تركها له أجداده للاستمرار فيها بعد المحافظة عليها .

.. ولم تساند قوى الحكم الوطنى الجديدة الاتجاه العلمانى فى نظام الحكم ، أو فى التربية والتوجيه ، أو فى التشريع ... فى غير عداوة أو فى غير كراهية للاتجاه الاسلامى ولن ينتسبون الى هذا الاتجاه ... أو فى غير كراهية على العموم لماضى تلك المجتمعات .

والاستخفاف ، أو الاستهتار الذى يصاحب تصرفات الحاكمين ، أو يصاحب أقوالهم أحيانا ، بالنسبة لبعض المبادئ الاسلامية ... يدل بصورة واضحة على : أنهم على الأقل لا يجدون قوة أخرى بين المواطنين تقف أمامهم وفي وجههم لتردهم عن استخفافهم واستهتارهم .. كما يعد من جهة أخرى تنفيسا لما فى صدور هؤلاء الحاكمين مما ضاقت به نفوسهم تجاه تلك المبادئ .. لسبب من الأسباب .

... وأصحاب الاتجاه العلمانى من المستعمرين ... هم الذين مهدوا بأنفسهم لذلك أيضا يوم أن ربطوا علماء المسلمين فى سلسلة موظفى الحكومة ،

في آخر درجة مالية بين درجاتها وبذلك أصبح هؤلاء : عليهم التبعية بدل الزيادة . كما أصبحوا يراهم الآخرون في أدنى المنازل ، بعد أن وضعوا في آخر الدرجات المالية الحكومية تدرجا ... وكذلك يوم أن أشرف أصحاب هذا الاتجاه على أوقاف المسلمين وحدها .. دون أوقاف غيرهم ، وحالوا بذلك دون أن تكون هناك حركة اسلامية مستقلة في تمويلها .. وفيما تبديه من آراء . أو فيما تنشره على الناس من فتوى .

فلم تعد هناك في هذه المجتمعات قوة اسلامية تصد وتدفع .. وانما كان هناك موظفون ممن لهم صلة بالتراث الاسلامي .. وهناك الشعب المسلم . واذا كانت وظيفة الحكومة تستتبع ضعفا في الموظف ، هو ضعف الطاعة والتبعية المطلقة ... فان الشعب المسلم توزعت ارادته بين .. دينه .. ووطنه ، بعد ما فصل الاتجاه العلماني بين الدين والقومية ... وأصبح رجال السياسة والحكم يمثلون الجانب القومي ولهم الطاعة ... كما أصبح علماء المسلمون ينتسبون الى جانب الدين ، وهم أنفسهم عليهم الطاعة والتأييد .. للحكم القائم .

وبذلك ضعفت ارادة الشعب المسلم عن أن يقف في وجه الحكام باسم الاسلام ضد اعتدائهم عليه ... كما ضعف من قبل : العلماء الاسلاميون ، بحكم تبعيتهم في الوظيفة .

● وبالإضافة الى النزعة التقليدية المتحكمة لدى أصحاب الاتجاه العلماني ، وهم رجال أجهزة الحكم وأصحاب القيادة السياسية ، في المجتمعات الاسلامية المعاصرة ... تسيطر ظاهرة أخرى ، تجعل الحكم الوطني مصدر قوة للعلمانية ، أو الماركسية اللينينية ... وبالتالي مصدر ضعف بالنسبة للاسلام ... وهي ظاهرة الهدف من الحكم :

... ان جاهد الحكم والسلطة .. أو اقتناء الثروة ، يفعل فعله في التطلع الى الحكم بعد الاستقلال .. وفي التطلع للحصول عليه ، والاستمرار فيه ، أكثر من صالح المجتمع نفسه .. وهو الصالح العام .

وآية ذلك : أن الحكم الوطني في المجتمعات الاسلامية لم يتقدم كثيرا لتصفية رواسب الاستعمار الغربي فيها . وما حاول رفعه هذا الحكم من هذه الرواسب ... فبقدر ما يتيح له البقاء فترة ، أو فترات أخرى . ولم نر ، حتى هذه اللحظة .. نظرة راديكالية تعيد مقومات المجتمع الأصلية والضرورية الى اعتبارها ومكانتها . وقد نرى مناقضات ... هي شد الى الماضي ... وجذب الى اغراء الحاضر ... أو عودة الى تأصيل في جانب ... وقفزة في

التقليد في جانب آخر ... أو اشراك جانبين متضادين في الحكم ، يحاول كل منهما أن يهدم الآخر .

... ومع ذلك فأكثر أحاديث الحكم الوطنى بعد الاستقلال في هذه المجتمعات .. يدور حول مصالح الشعب ، وتؤكد حقوق الشعب في مباشرة الحكم لصالحه قبل كل شيء ... ولكن ذلك هو المادة المفضلة لوسائل الاعلام في الحكم الوطنى ، استمرارا لشعارات حركات التحرير ضد المستعمر قبل الاستقلال .. تلك الشعارات التى تقاتل الشعب وضى تحتها ، بعد أن رفعها وسار وراءها .

والشعوب الاسلامية يعلم حكامها : انها في حاجة الى وقت طويل ، كى تكون قوة في ذاتها تحرك الحكم وتوجهه لصالحها وحدها ... يعلمون ذلك ، لأن الجوع ، والمرض ، والجهل .. مزقها ، وغلب الانانية على اتجاه أفرادها ... فهي تستسلم من أجل لقمة العيش ... وتستسلم بسبب ضعف المرض .. وتستسلم لأنها لا تقدر على الحكم الصحيح .

... والحكم الوطنى لم يأخذ الطريق السليم منذ الاستقلال لاعادة بناء هذه الشعوب : إذ أول دعامة في اعادة البناء .. تكوين الشعور بالحرية الفردية ، والقيمة الانسانية ... أول دعامة لاعادة البناء : تحقيق تكافؤ الفرص في الحياة ، ورفع حكم العصابات ، والطوائف والأحزاب ... أول دعامة في اعادة البناء . عدم خداع الشعب بالشعارات البراقة الزائفة ... أول دعامة في اعادة البناء : عدم استعادة أساليب الترويض الوسطى في التعذيب ، والاضطهاد ، والحجر ، والاستخفاف بالحرمان الشخصية في النفوس والمال ، والعرض ، والمسكن ... أول دعامة لذلك : سيادة القانون ، وعدالة التشريع : واستقلال القضاء . أول دعامة أصيلة لذلك : تحقيق العدالة الاجتماعية ... وتوزيع عائد الثروة القومية توزيعا متكافئا .

... عندئذ يكون الحكم حكما حضاريا ... وينشأ الانسان في ظله حضاريا .. وإذا تحضر الانسان نفسه .. أصبح لبنة قويد في بناء مجتمع حضارى قوى .

... وعدم تحقيق الحكم الوطنى للمصلحة العامة يجعله قطعاً للحصول على الجاه ، أو المال .

وإذا تمحص الحكم لذلك .. هان عليه أمر المقومات الأصيلة للمجتمع ، وحصل بدلا عنها ، ما يعينه على الاستمرار ، ولو لفترة .

... وليس أمامه في غيبة المقومات الأصيلة للمجتمع الا السير فيما ينعت

بالطريق التقدمي : وهو طريق الاستمرار في اتجاه العلمانية ، أو الأخذ بتقدمية الماركسية اللينينية ! .

● يضاف الى مصادر قوة الاتجاه العلماني ، وضعف الاتجاه الاسلامي ، في المجتمعات الاسلامية المعاصرة . . . عدم وجود هيئة مركزية ، وليس بلازم أن تكون لها سلطة ، ولكن لها رأى موجه ، في هذه المجتمعات . وهذا الفراغ بقدر ما يسبب القوة للاعتداء على الاسلام . . يسبب للاسلام الضعف في . . . رد الاعتداء عليه .

. . . وقد كان لبعض المؤسسات الاسلامية في بعض المجتمعات الاسلامية هذا الاعتبار : كالازهر في القاهرة . . وجامع الزيتونة بتونس . . وجامع القرويين بفاس . . وقد كان أيضا لزعماء بعض الحركات الاسلامية في مجتمعاتها ما يشبه الحجية . . كالحركة الوهابية بنجد . . والسلفية بليبيا .

. . ولكن هذا وذاك ، بعد تمكن العلمانية . . فقد الاعتبار ، أو كاد يفقده . . وهذه المؤسسات لم تقن بعد . . وانمسا في فترة الضعف الذي تعقبه النهضة !

ومن المصلحة أن يشتد ضعفها حتى يبلغ مداه . . اذ عندئذ تكون الانتفاضة من جديد . . . انتفاضة الحى في قوة شبابه . ولا يضير أن يتولى أمرها في وقت من الأوقات أو في فترة من الفترات . . من لا يفتنون رسالتها ، امعانا في اضعافها . . . ولا يضير أن يبالغ رجالها في كسب الدنيا عن طريقها . . . ولا يضير أن يحاول طلابها الهرب تخلصا من الانتساب اليها : فان ذلك كله . . أمانة الحياة الجديدة المرتقبة !

. . بين اليأس والأمل :

. . وهنا لا مكان لليأس ، طالما أن قانون الحياة هو قانون النقيض :
« يخرج الحى من الميت . . ويخرج الميت من الحى » (١) . . « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » (٢) . . « فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا » (٣) .

. . حتمية الماركسية اللينينية . . تقوم على مبدأ النقيض ،

(١) آل عمران : ٢٧ بلفظ « تخرج » .

(٢) الحج : ٦١ ، لقمان : ٢٩ ، غاطر : ١٣ ، الحديد : ٦

(٣) الشرح : ٥ ، ٦

.. وانهيار نظام الرأسمالية ، والأخذ بنظام الاشتراكية .. يقوم على مبدأ النقيض .

.. والايمان بالبعث والنشور .. يقوم على مبدأ النقيض ،

.. وتغيير المجتمعات .. يقوم على مبدأ النقيض ،

.. والايمان بالله نفسه .. يقوم على مبدأ النقيض ،

.. فلماذا لا يقوم ايمان جديد .. بعودة الاسلام .. ونظامه في حياة المجتمعات الاسلامية القائمة .. بناء على حتمية مبدأ النقيض كذلك ؟

... لماذا يتحفز دعاة الماركسية اللينينية **لليوم الموعود** .. الذى يتحقق فيه المجتمع العمالى العالمى ؟

.. ولا يتحفز بعض المؤمنين بالاسلام في المجتمعات الاسلامية .. لعودة نظام الاسلام في حياة المسلمين ؟

.. ان المجتمعات الاسلامية المعاصرة في موجة بعث جديد .. فيها الأخذ والرد .. فيها تقلب المعايير .. فيها الاصطدام والتصادم الفكرى .. فيها الجنوح الى اليمين والى اليسار .. ولكن ستعقب ذلك حتما نهضة .. تحيى ما مات وفات .. وتستأنف السير في يومها .. من امسها .. الى غدها .

ولن تكون نهضة بدون ماض ... ولن يكون ماض في المجتمعات الاسلامية بدون اسلام .

ان الاستقلال السياسى حصلت عليه سبع وثلاثون دولة اسلامية . حتى الآن : من اندونيسيا شرقا .. الى المغرب غربا ... ومن تركيا شمالا .. الى تانزانيا جنوبا .

... وان سكان العالم الاسلامى يشكلون ازيد من خمس سكان العالم . فمجموعهم ستماية وخمسون مليونا ... ومن ثلاثة آلاف مليون نسمة .

... وانهم يحتلون أغلب المواقع الاستراتيجية سياسيا ، وجغرافيا في العالم ... ٦٠ ٪ من سكان البحر الأبيض المتوسط . مسلمون ... وقاتل السويس ، أول مركز للمواصلات المائية في العالم ... والدردنيل .. والبحر الأحمر .. والخليج العربى .. كلها اسلامية ..

.. الاستقلال الاقتصادى للعالم الاسلامى ابتداء يتحرك .. ويغالب في صراعه الاستعمار ، الذى في جملته دام أكثر من مائتى عام . وهو اذ يستقل

يشكل قوة هائلة... بجانب ما للمسلمين من قوة النسل بين السكان .
فالعالم الاسلامى يملك ٦٦ ٪ من مخزون البترول فى العالم ... و ٥٢ ٪ من
ثروة التصدير ، ، ... و ٧٠ ٪ من المطاط الطبيعى ... ونصف ما يملك
العالم من الجوت !!

فاذا تحرك الاستقلال الثقافى على أساس من الاسلام وتعاليمه اقتربت
هذه البلاد بعضها من بعض وزاد نفوذها .. وخطت خطوات واسعة نحو
السلام ، والتقدم ، فذلك هو الاسلام .. تنظيمها للحياة .. ودنيا للانسانية .

... وان افريقيا بالذات تعتبر القارة الاسلامية .. فمن دولها المستقلة ،
التي عددها ست وثلاثون دولة .. يشكل المسلمون ثلاثا وعشرين منها ...
ومن سكانها الذين يبلغون مائتين وخمسين مليوناً .. يكون المسلمون مائة
وخمسين مليوناً ..

... والامل قوى .. بعد ان وصلت التبعية فى التوجيه الى الغرب قمنا ...
او كادت ... ووصل بذلك ضعف الوجود الاسلامى فى المجتمعات الاسلامية
المعاصرة الى نهايته او كاد ... ان تبتدىء النهضة من جديد ، باعادة التقييم
لاتجاهات التوجيه الغربى فى هذه المجتمعات .. فى مواجهة الاسلام ،
واستئناف حياة اسلامية .. ايدىولوجية .. وتطبيقية وبذلك يتم الاستقلال ..
وتكتمل القوى .. وتكون عندئذ السيادة ..

والقارة الافريقية لو اختيرت اولا للجهود الاسلامية ... لاقترب تكامل
القوى للعالم الاسلامى كله : لا لأنها تعتبر القارة الاسلامية .. ولكن لموقفها
الاستراتيجى .. ووضعها الجغرافى بين قارات العالم .. وإمكاناتها فى
الاقتصاد الاسلامى .. والعالمى على السواء ..

... وان الحقبة الباقية من قرننا العشرين ، والقرن التالى بعد ..
لكفيلة بتحقيق مضمون الاستقلال للعالم الاسلامى كله ... وتحقيق عزته ..
وأمنه ..

والقارة الافريقية لو اختيرت اولا للجهود الاسلامية ... لاقتها تكامل
القوى للعالم الاسلامى كله : لا لأنها تعتبر القارة الاسلامية .. ولكن لموقفها
الاستراتيجى .. ووضعها الجغرافى بين قارات العالم .. وإمكاناتها فى
الاقتصاد الاسلامى .. والعالمى على السواء ..